كانت ثلاثة من الايام العصيبة في حياتي .. لم اكن قد هيأت نفسي لها حينما حملت رفات ابي على سطح سيارتي من مستشفى في دمشق الى مقبرة الاسرة في البوكمال .. حتى هذه المسافة الوعرة التي تمتد بطول تسعمئة كيلومتر لم تدخل في حسابي. كان ابي ، وكنت احبه ، بل اني لاشعر بالسخف وانا اعلن هذا كانما هو شيء يقبل النفي والاثبات . آه يا ابي ! لشد ما اخشى ان تكون قد اغمضت عينيك على شك في هذه الحقيقة .. فقد قامت بيننا منذ شبابي الباكر جدران لم نستطع هدمها رغم محاولتنا الصادقة وكان كل منا يعتقد بان الاخر هو الذي شادها وراح يدعمها .. كان يجب ان تدرك ايها الراحل الغالي انني لم اكن سوى انت نفسك ... كل ما حدث انني اختلفت معك .. لقد انتهى الطريق بك الى جبل وكان لا بد من امتداده صعدا . الحياة حركة .. رحمك الله ، وغفر لي .

في الطريق من المقبرة الى البيت ، في نهاية اليوم الثالث ، احسست بالتعب بغتة ، واذ ذاك فقط وعيت انني منذ ثلاثة ايام لم انم سوى عدة ساعات ، ولم يكد راسي منذ مساء الامس ينجو من الصداع لحظة واحدة . كنت الابن الاكبر ، والتعزية كما وجدتها اخيرا افدح واجب بين واجبات الابن الاكبر .. فللصغار ان يقدموا الماء ، الكراسي ، الاشراف على الطعام ، البكاء ما وسعهم يخففون به ثقل الحزن. اما الاكبر فيجب ان يتحمل الوقوف طوال كل يوم ليتلقى هذا المسمار تلو المسمار في رأسه: (البقية في حياتك) .. وينبغي له ، مع ذلك ، الامتناع عن اطلاق دمعة واحدة يجرف بها قليلا جدا من هذا الرصاص الذي ينسكب باستمرار داخل جمجمته فيضغط على روحه .. كان هذا ، بالضبط ، هو ما عانيته .. لذا فانني حين وصلت البيت اعتذرت للرجال القلائل الذين لازموني رغم تعبهم ، واغلقت الحجرة المخصصة لي .. ونمت بعد وقت قصير استعدت فيه ـ مرغما ـ احداث الايام التسعة منذ دخول والدي المستشفى حتى اليوم ، بصورة مهزوزة قلقة تسبح في ضباب كثيف .

افقت عصر اليوم التالي ... لبثت دقائق في حالة شلل نفسي تام بعد ذلك باغتتني حقيقة موت ابي كانني ادركها لاول مرة ، فانتفض قلبي من هدوئه، وانهمرت الدموع بغزارة. ولكني عدت فاستغرقت في النوم من جديد .. حتى أيقظني صوت زوجتي ..

نظرت اليها في اسى . كانت عيناها تحملان لي العزاء رغم ما فعل بهما البكاء والارهاق . كان ـ رحمه الله ـ يكرهها .. لانها شامية . وكان ابرز برهان لديه انها « اختطفتني من بيته وربطتني في اسطبل اسرتها » ، كما دأب على القول ـ رحمه الله .

لم تتركني استرسل ، فأهابت بي ان انهض فاغتسل في الماء البارد، لاقوم بواجب استقبال رجل يدعى الحاج صالح السعفان ..

حملقت في وجهها بدهشة ، وقد هزني هذا الاسم من الاعماق :

ـ الحاج صا ... كيف ؟

ـ حضر اللحظة .. وهو جالس وحده في حجرة الاستقبال . لقد رجا اخاك بحرارة ان يوقظك .بدا لي انه متألم جدا . هلا ابدلت ملابسك الداخلية ؟

شعرت بانتعاش تحت الماء البارد .. منذ موت امي قبل خمسة عشر عاما لم ار وجه الحاج صالح السعفان ـ عم امي .. كنت اعلم انه لا يزال حيا ، ولكن لم اكن اتوقع ان يذكرنا . كان بين ابي وبينه حرب لم تزدد الا ضراما رغم ابتعاد الفرنسيين وانقضاء اعوام كثيرة على العهد الوطني . كان الصراع قد بدأ بين الاسرتين بعد تمكن الفرنسيين من السيطرة نهائيا على البوكمال واخضاع القبائل الثائرة التي لم تكن تنفك عن مهاجمة المدينة من وقت لاخر ، والقضاء على العناصر الوطنية الثائرة داخل المدينة او نفيهم او ملاحقتهم . كنت في العاشرة آنذاك .. طفلا مترفا تهوله احيانا تلك المجازر الرهيبة التي بذرت الكره في كياني لذوي الوجوه الشقراء ، وذلك كل ما كان يؤلف موقفي آنذاك ، ان كنت ملكت موقفا محددا . كان بيتنا على كل حال هادئا ، وكان ابي موضع احترام من كلا الطرفين ، يتودد اليه الفرنسيون والعرب على السواء .. لانه ثري ومن كبار الذين يجمعون بين التجارة والزراعة . يقيم في بيت كبير يتصدر بستانا خيرا واسعا على شاطيء النهر . وكان الحاج صالح السعفان يرتبط بوالدي برباط حيوي ، فهو منافسه في كلا ميداني التجارة والزراعة ، وفي الشراء ، وفي البيت الكبير وسط البستان الواسع ـ على الشاطيء نفسه ـ الذي يفصله عن بستاننا سور يرتفع فوق رأس رجل طويل مبني من لبنات طين نيء .

كانا يسهران الليالي معا ويترافقان في الاعراس والمآتم . كانا ذكيين يفكران تفكيرا تجاريا جيدا سليما الى ابعد حد ، واحدى آياته زواج والدي من ابنة اخ الاخر اليتيمة .. اذ كان الحاج صالح قد تبناها بعد فقدها اباها مقتولا بيد مجهول .

بيد ان الفرنسيين نظروا الى هذين الرجلين البارزين نظرة خشية. وهكذا بدأت الحرب بين الاسرتين .. كانت الشرارة الاولى قتل فرس لابي أثيرة لديه ، من قبل احد فلاحي الحاج سعفان .. كما قالت الاشاعات آنذاك . لقد ربط الناس بين الحادثة وبين حادثة قبلها باسابيع ، في السباق السنوي العام الذي كانت تقيمه القيادة الفرنسية . اذ كان من المتوقع لدى الاكثرية فوز فرس الحاج سعفان. ولكن الشوط النهائي منح القصب الى فرسنا . ابي لم يجد اي دليل مادي على صدق الاشاعات ، كما ان الحاج سعفان لم يجد ايضا ذلك الدليل على صدق الاشاعات القائلة بعد ذلك بان احد فلاحينا هو الذي قتل الفلاح الذي اتهم بالفرس . وخلال الاعوام الخمسة التالية هجرت امي البيت عدة مرات ، متمزقة كصلة بين الطرفين المتناحرين حتى ماتت فاستراحت ، وكان موتها مؤثرا على الرجلين فانتهت الحرب ولكن العداوة بقيت .. حتى اليوم ..

كان الحاج صالح السعفان شبه غاف وهو متكور في عباءته فوق اريكة تقع تحت صورة للراحل على الجدار . وقفت في الباب انظر اليه متهيبا : كيف يكون السلام ؟ وماذا سيقول واقول ؟ لقد كان

دم عشرين فلاحا على الاقل ، من اسرتينا ، قد غذى العداء بينهما ثم اليس ثمة حرج لي ان يعرف الناس انني استقبلته في بيتنا بعد موت ابي مباشرة ؟ لا .. ليذهب الناس في التفسير أي مذهب يشاؤون فلست ابالي بآرائهم .. بعد ايام سأعود الى دمشق ، وقد اموت فيها قبل ان احط قدميمرة أخرى في هذه البلدة . لقد مات ذلك الماضي بموت أ ... رحمه الله ، وغفرلي . وهو ايضا سيموت . وشيكا . انه اكبر من ابي بكثير .. كان يجب ان يفهم الاثنان ان كل ما خلفه الفرنسيون لم يكن سوى اخطاء واوهام ولكنهم حافظوا عليها بسذاجة ، فخسر ابي اكبر ابنائه ـ انا الذي هجرت مهد طفولتي حالما استطعت ذلك هربا من شوك الاخطاء وسجن الاوهام ذلك الذي بناه حولنا الماضي ..

اضطرب رأس الشيخ قليلا وفتح عينيه فخطوت داخلا .. ولم يكد يتبين شخصي حتى حاول النهوض . فاسرعت بلا تدبر الى منعه متمتما :

ـ استغفر الله ، خالي ، ارجوك ، استرح ..

اخذ يدي بيد ضعيفة ، شاخصا الى وجهي بخجل . وارتجفت شفتاه الضائعتان خلف شعر شاربيه ولحيته الابيض ، وفهمت انه يقول :

ـ مصابكم المنا يا بني .. البقية في حياتكم .

ـ لا أراكم الله مكروها ، ومد في عمركم ..

لا ادري لم ارتجفت شفتاي انا الاخر وانا اجيبه بذلك ، ثم غصصت بلعابي . وسحبت يدي من بين يديه ، وتراجعت منحرفا نحو اليمين لاجلس على الاريكة المجاورة . وكان نظره لا يتحول عني وطال السكوت بيننا ، ثقيلا ، كريها ، حتى اوشكت انادي على من يحضر دلة القهوة ، حين خاطبني قائلا :

ـ اذن .. انت . انت هو محمد ! . نعم نعم .ما شاء الله ، ما شاء الله . لقد كبرت . صرت رجلا . ومحاميا . نعم محام ما شاء الله لا تؤاخذني يا ابني ، نحن هنا قتلنا جهلنا ، فلا تلمني اذا لم اعرف كيف اخاطبك ..

ـ العفو ، خالي ، خذ راحتك ..

وكدت اقول « فيكم البركة » حسب العادة فقط فاحجمت .

ـ كاني انظر الى ابيك ، ونحن بعد شباب . انك شبيهه . شبيهه تماما .. ولكنك تختلف عنه . انت عاقل وانساني . ما قصرت يا ابني حينما هجرت .

امتعضت . انه يغمز من والدي ويبدو انه لاحظ امتعاضي ، فقاطع نفسه بالعودة الى الاعتذار عن جهله وشيخوخته . وسكت . ثم سمعته يجمجم :

ـ لا ادري كيف يجبان اعبر لك عن مدى اسفي ... صدقني يا محمد !

نظرت اليه ، فوجدت عينيه تترقرقان بالدموع . شعرت بالاسف واوشكت الدموع تنفجر من عيني كانت دموعه اقسى ما يمكن ان اتحمل . فشاغلت نفسي عنها بان قمت واحضرت دلة القهوة المرة.ولما فرغ من ارتشاف اول فنجان قدمته له ناولني اياه بعدان ابقاه في يده لحظات ، وهو يتطلع الى الارض :

ـ سلمت يدك يا بني.. ايه ! ابعد عشرين عاما ! من كان يتنبأ بان اشرب القهوة في بيت عطوان السعد ـ ومن يد بكره ؟ اخوك سلمان .. رفض حتى استقبالي .. لماذا !؟؟ اليس هو متعلما ؟ واما الاخرون !. ايه !

ـ المسالة ليست مسالة متعلم اولا ، يا خالي .. انه الخوف من الناس ! الناس يحملون في افواههم مبارد . غدا سيقولون عني اشياء كثيرة ، سيئة ، لاني استقبلتك ..

ـ صحيح يا ابني. صحيح . الحق معك ، ما كان الذي حصل بيننا لولا السنةالناس التي ترهب الهدوء انهمكالذئاب تاكلبعضها حين لا تجد ما تاكله ...

ـ ميراث بغيض من بني عثمان والفرنسيين كان يجب ان تحرقوه .

ـ لا فض فوك يا ابناختي. هذا هو الكلام الصحيح.. هذا هو العقل .. اين كنت اذا ؟ لماذا تركتنا نتخبط بجهالتنا ؟ أخ ! أخ ! كم نحن اغبياء !كان يجب ان ابعث اولادي جميعا الى المدارس العالية في البلاد . اتزوجت من البلاد ؟

ـ من دمشق .

ـ هم ! متعلمة ؟

ـ تحمل التوجيهية .

ـ ما شاء الله ! احلى من بناتنا ؟

ـ من تقصد ببناتكم يا خالي ؟ زوجتي من دمشق قلت ، لم اقل من باريز ولا من اسطنبول .. اعني عربية . عربية !

ـ ادري يا ابني ادري .. ما قصدت شيئا مسيئا . لكن . اتريد ان اذكرك دائما انني شيخ خرف وجاهل لم يعرف غير الفرات نهرا ، ولم يجتز عانه في الجنوب ودير الزور في الشمال طول السبعين التي عشت . لا تؤاخذني .. ارجو الله ان يسعدكما .. هل انجبتما ؟

وهكذا . بدأ الدم الاسود المتجمد ، العفن يتفتت، وتذروه رياحما .

قضيت ليلة ضجرة ، مثقلة بالصمت والذكريات وصورة ابي . ورغم ان زوجتي ثرثرت قليلا حول طفلنا ـ ابن العام الواحد ـ الذي تركناه في بيت جده بدمشق ، مبدية قلقها على راحته وشوقها اليه ، فقد بقيت متوحدا مع شبح ابي . وفي الصباح خطر لي الابتعاد عن البيت قليلا عسى ان تفيدني نزهة على الشاطيء. غير انيتذكرتانزوجتي ستظل وحيدة بدوني ، في بيت الموت هذا ، تعاني قلقها وشوقها اللذين لم اعرهما التفاتا بالامس . شعرت بالندم وسعيت اليها متعذرا .. ولست اذكر انني قبلتها من قبل بمثل هذا الحنان الذي جعلها تلتصق بي بالحاح ، ولكن في هدوء ، وهمست عبرى :

ـ آه يا محمد ! أتعرف اني قد جربت فقدك خلال هذه الايام ؟

ـ سامحيني . انت تعلمين ان ليس لي سواك .. سنرحل غدا . سنعود الى بيتنا وطفلنا .

على اني لم احمل صدى هذه المقابلة العاطفية بيننا ـ رغم عنفها ـ اكثر من دقيقة واحدة ، فحالما هبطت الدرجات الثلاث من المنزل الى الممشى الذي يشق البستان حتى البوابة الرئيسية ، طغت علي فكرة ملأت راسي.. ان ازور المكان الذي وهب طفولتي اجمل ساعاتها ، اروع ذكريات الطفولة . المكان الذي احاله والدي والحاج سعفان الى ارض حرام بالنسبة لي .. الجنة التي طردني منها غول الخرافة الوحشي .

غادرت بستاننا ، نحو اليمين ، بنفس اللهفة والحماس اللذين كنت افعل بهما وانا في العاشرة من عمري . واذ اقتربت من بوابة بستان الحاج صالح السعفان توقفت ، ورحت اتأملها كتانه امام بام بيته بعد تشرد .. كم ؟ عشرين سنة ! اجل .. عشرون ثلاثمائة وخمسة وستين يوما !

بيد اني تنبهت الى شيء غريب فيها . هذه البوابة . ليست هي . تلك كانت كغيرها ، من طين يؤطرها وقضبان خشبية متهالكة .. في حين ان هذه تتشكل من دعامتين رخاميتين يقوم فوقها قوس من رخام ايضا ، وقضبان حديدية مطلية بالدهان الاسود تزينها قطعتان فنيتان من النحاس اللامع . وتنبهت فجأة الى حقيقة ذهلت عنها خلال ايام الذهول عما عدا الموت .. لم تكن هذه البوابة وحدها في الواقع هي التي تبدلت . بوابة بستاننا ايضا . لم يكن التبدل من نصيب البوابتين فقط بل ان اسوار البستانين جميعا قد بدلت ..وتطلعت الى سور بستاننا كاني اراه للمرة الاولى ، ثم نقلت بصري الى سور جيراننا .. حجر كلسي ابيض مكحل بالاسمنت الاسود ، باشكال بديعة حقا ، ودعامات من حجر واسمنت ايضا !

يا الهي ! وبيتنا ! كيف لم انتبه الى انه قد تبدل ايضا وفارق شكله التقليدي القديم الساذج .. حقا انه لم يبدل تماما ، من

الاساس ، ولكن اصلاحات كثيرة ولا شك قد اجريت فيه .. المطبخ والحمام بصورة خاصة . كنا نقتسل في طشت كبير في جانب من حجرة عادية دخنة كانوا يستعملونها كمطبخ .

لشد ما كنت اضيق بحياتنا آنذاك . ولم تكن المناقشة مجدية مع ابي .. بل لم تكن ممكنة ، فكم من صفعة محرقة الهبت وجهي من اجل كلمة ، كان يأمرني بالنوم مثلا فأجيب بانني لم انعس بعد ، رحمه الله على كل حال !

تقدمت من مدخل البستان بتهيب، وشوق . دفعت الباب الحديدي وخطوت عدة خطوات ثم وقفت . وعانقت عيناي جنة طفولتي دفعة واحدة . ثم راحتا تلثمان كل جزء تستوعبانه منها . وبدأ قلبي ينبض بدم لا يمت الى دم الرجولة في شيء .. انه قلب ذلك الطفل ، ذي العشر ، بشعره السهل ، وحذائه المشوه وعينيه الزئبقيتين المتطفلتين على كل شيء في هذا الوجود الاخضر الصغير .

ها هنا نصبنا الفخاخ للعصافير ، وهنا غضني احد كلابهم الذي لم يأنس الي ابدا ، خلافا ، لاخوته ، وهناك كنا نبني بيوتا من بقايا اللبن الذي يحضر بين شهر واخر لترميم مواطن الخراب في الجدران التي لا تنفك عن الخراب . كنا . نعم . نحن الثلاثة . انا . وخالد ـ ابن الحاج الكبير ـ واخته خالدة .. خالدة !

تحركت قليلا داخل البستان ، متحاشيا امكانية رؤيتي من قبل احد ، ولكن نباح الكلاب اوقفني .. لم يزل هناك كلاب ! وفكرت كاني لا زلت ذلك الطفل الذي يرهب الكلاب رغم وسطه المليء بها : يجب ان تزول الكلاب من العالم كيما يمكننا ان نحيا بامان . وتراجعت كي اغادر البقعة المضيئة من المسرح المعتم الذي كان ماضي .. لو استطعت فقط سلخها عما يحيط بها ! هذا غير ممكن بالطبع ، انها من صلبه . يقينا لو استطعت لتمنيت الموت فيها . ولكن هانذا فيها مرة اخرى ولاخر مرة . فكيف اغادرها بهذه البساطة ، وهذه العجلة ! يا معين الحياة حينما فقدت كل رغبة في الحياة . حين قذف بي غول الخرافة عاشق الطين الى ذلك الشيء اللزج المريع الذي يسمى اليأس . ذلك الذي مزق براءتي بانامل رقيقة تتفجر حبا وعطفا . ولكن ما بالي ابعث تلك الحقارة التي كانت نحن ـ الماضي المرزغي العفن ـ من جديد اليس هو الان جثة هامدة متنتنة ؟

عاد نباح الكلاب يتعالى . لم ابال به . تقدمت يملؤني الحب والحقد قوة ورغبة في العودة الى الطفولة فحسب ، بكل براءتها ولازمانيتها. ووصل كلبان يبدوان بمظهر اقل قبحا من اسلافهما واكثر نظافة حتى ليتمنى المرء عشرتهما ، ودارا من حولي عدة دورات ، ليبرهنا لي انهما ليسا اقل شراسة او اكثر تسامحا ، مترددين يريدان تشجيعا مني ، حركة تفضح خوفي . تبسمت لهما ، وسرت قدما ، متشاغلا عنهما بوجه طفلة بدا يشع في نفسي من خلال السنين سعادة ناعمة وتلمست في نفسي هذا الوجه . خالدة ؟ مالي ولها ! كلانا قد تزوج وانجب . وانا احب زوجتي حبا لم اعرفه لاي كائن أخر .

ها هي ذي الشجرة العجوز .. اولم تزل ؟ انها هي حقا !. لم تكد تتغير كنا نحبها ، ولا يحلو لنا ظل غير ظلها ضمن مئات الاشجار التي يزدحم بها البستان . نستلقي تحتها تعبين ، او نتقافز لاهين فوق اغصانها كالعصافير . كنا نتسلق جذعها بسهولة ، وفي حين ان خالدا وانا كنا نهبط بنفس السهولة ، او نلقي بجسمينا من فوق ادنى غصن على الارض الهشة ، كانت خالدة دائما تعجز عن ذلك فتستغيث بخالد الذي يسارع الى تلقيها بحضنه . كنت في كل مرة اقف متطلعا اليها في حسرة حاسدا الاخ ، معانيا امنية ان تستغيث بي ولو مرة واحدة ...

ـ هل تأمر بشيء ايها السيد ؟

التفت واجفا ، اذا بي امام كهل ريفي يرتدي ثوبا طويلا تكشف فتحته المهملة عن صدره، ذي وجه شديد السمرة بلحية مرسلة شائبة وعينين حادتين . هذا الوجه اعرفه حتما . وتأملته مستذكرا ، في حين كان يرمقني بنظرة تكرر سؤاله ، ثم سألني من جديد :.

ـ اتقصد احدا ؟

تذكرت انه خلف . خلف نويصر .. احد فلاحي الحاج ممن يعنون بالبستان وهرعت اليه مادا يدي مبتسما وانا اهتف :

ـ خلف نويصر ورحمة ابي . كيف حالك ؟

صافحني مبتسما وهو حائر ، واجاب :

ـ حمد الله ، كيف حالك انت يا سيدي ؟

ـ انا محمد يا خلف .. محمد بن عطوان السعد .

ـ حقا ؟ الف رحمة من الله عليه ، كيف حالك يا ابن الحلال ! .والله ما عرفتك . لقد تغيرت كثيرا .. ما شاء الله ، حتى لهجتك تغيرت ، خلتك غريبا عن ديارنا . كيف حالك ؟

ـ لم يتغير في شيء يا خلف والدليل انني لا زلت اذكرك واذكر الايام الحلوة التي قضيناها في هذا المكان . الا تذكر ؟

ـ كيف لا ؟ الصغار العابثون الثلاثة الذين شيبوني قبل الاوان .

ـ ولكننا كنا نحبك يا خلف .. كنا نحب كل شيء طيب ومسالم في الحياة .

ـ وانا ايضا كنت احبكم .. سقيا لها تلك الايام . ليتكم تتصالحون يا سيدي وتعيدونها . ليتكم لعنة الله على ابناء السوء.

ـ اطمئن يا خلف ، اطمئن ، لن اسافر قبل ان افعل . لن اعيد تلك الايام فانني لا اكره شيئا في الحياة كرهي لها .. كانت بغيضة ... ولم تكن حلاوتها الا في هذا العالم الخاص ـ الصغير جدا ـ حيث مرحت طفولتنا . اما ما حوله فلم يكن سوى قذارة ووحشية وموت يسمونه حياة.

ـ صحيح يا سيدي ،صحيح .. الا تذكر ابن اختي سويلم ؟

ـ كيف لا اذكره .

قلت ذلك مبتسما ، ولكن وجهه اكتسى باسى غريب ادركته في قوله :

ـ كان من جملة الضحايا !

وجمدت الابتسامة في وجهي . فطأطأت راسي متمتما في خجل :

ـ انا اسف جدا يا خلف . لقد كان طيبا . مثلك .

ـ ولكن تخلصت من طيبتي المقيتة منذ رايت رأسه المهشم وجسمه الممزق .. فقتلت ..

وادرك انه اخطأ فتوقف في الحال ، وحملق بي . قلت :

لا شك في انك قتلت بريئا .. لانك لم تعرف قاتله ، اليس كذلك؟

ولم يحر جوابا ، بل اشاح بوجهه نحو الكلاب التي اقعت قريبا منا ترقبني بفضول وتابعت :

ـ ولكن كان حسبك انه من عشيرة القاتل .. يا للعدالة ! وهكذا هربت انا منكم .. ليس خوفا من ان تقتلوني ..فلقد كان سهلا علي ان اموت من ان اري راسا مهشما او جسما ممزقا .

ـ على كل ، نعم ما فعلت .. فانني الان ، وقد اكتهلت ، ادركت ان كل شيء لم يكن الا عبثا مريعا . ما هو خبزنا نحن في القضيبة لقد كانت قضيتكم وحدكم انتم السادة .

وتأملته في فرح ..

ـ لم تكن قضيتنا جميعا يا خلف .. بل قضية سيد اخر . سيد وهمي . ولكنه مع ذلك كان قويا طاغيا في سلطته وجبروته . وبدلا من ان نقتله ونتحرر ، خضعنا له اذلاء مساكين ، واطعناه ببلاهة واشهرنا اسلحتنا ضد انفسنا نحن . لقد وقعنا في الفخ بسهولة ... صدقنا اكثر مما يلزم قصة الطين.. قلنا : ما دمنا من طين نشأنا فلماذا نسمو عليه .. ناكر اصله ليس بذي اصل ، ومن لم يكن ذا اصل فهو لا شيء . رغم ذلك فاننا لم نكتف بالسير فوق الطين منتظرين العودة اليه في الحين المقدر ، ولكننا انغمسنا فيه حتى رؤوسنا .. وكان طبيعيا ان لا نرى الاشياء الا من خلاله .

ثم توقفت بغتة .. ناظرا اليه بابتسامة اعتذار وحين هم بالكلام سألته ان يعلن لسيده انني زائره

***

اشرقت شمس اليوم التالي علي وانا اقود سيارتي على الطريق المترب الطويل مبتعدا عن البلدة المنعزلة ، راجعا الى دمشق ، بجانبي زوجتي ، عذبة

فاتنة في ثوبها الاسود وعينيها المبتهجتين . وكنا مذ غادرنا البيت قبل ربع ساعة لم نتكلم .. كانت افكارنا تملأ رأسيا ولم اشك في ان هذه الافكار منسجمة مع بعضها تماما . مددت يمناي قابضا كفها الرخص في وله :

ـ اتدرين ما الذي اكتشفته اليوم ؟

ـ . . . ؟

ـ انك شديدة الفتنة في ثياب الحداد .

ـ حقا ؟

ـ كبدر يداعب حلم مراهق في عتمة داجية .

ـ الا تظن انك بكرت في العودة الى التغزل بي ؟

ـ ابدا .. ما الفائدة من الاستسلام للحزن طويلا من اجل موت كان لا بد منه ؟ ..

ـ آه ما اقسى افكارك .. انك ترعبني احيانا ، اتدري ؟

كثير من الحقائق مرعب .. ليس لان تلك الحقائق مرعبة في ذاتها ، ولكن لاننا نحن نرفضها مسبقا بدون مناقشة . الانسان يكره العدم ، ولذا فان الموت يبدو مرعبا .. حيثما يموت انسان ما ، فان الاخرين يتذكرون انهم سينتهون ، ان عاجلا او اجلا ، بصورة عملية ، فلا يبقى الموت مجرد فكرة بعيدة ، بل حقيقة واقعة لامحال قريبة اكثر مما يتوقع ، مجسمة في موت فعلي .. موت الاخر . فنندبه ونحن نندب انفسنا . ولكن ، في الواقع ، والدي لم يمت . لانني انا حي ، ولن اموت انا طالما طفلي حي . مات الماضي فحسب ، وسيصبح الحاضر ماضيا ويموت لكي يتحقق المستقبل . ان الذي علينا عمله هو ان يتحقق هذا المستقبل بصورة اسلم واجمل . سأعمل جهدي لامنح طفلي ميراثا يجعل مستقبلنا كوجهك هذا . بدرا ينبثق من ظلمة !

واقتربت مني ، وطوقت جسمها الصغير بذراعي الطليقة ، فالتصقت بي ، واضعة رأسها على كتفي متنهدة بارتياح ، وقالت :

ـ انا اضم جهدي الى جهدك سعيدة . انني حتى اليوم لم اعمل اكثر من التباهي بثقافتي الجامدة وكوني امرأة جميلة ، وكنت ازعجك

ـ انا واثقة من هذا .. ولكن ، اترانا سوف نمكث طويلا في دمشق ؟

ـ لبضعة ايام فقط ، ريثما اصفي اعمالي وتودعين اهلك وصديقاتك

ـ وهل سنقيم في بيت اسرتك بدون توسيعه ؟

ـ بل سنهدمه من الاساس : ونبني بيتا جديدا .. كل الجدة .. وسنفتح بابا في السور بين بستاننا وبستان الجيران ...

دمشق — عبد العزيز هلال

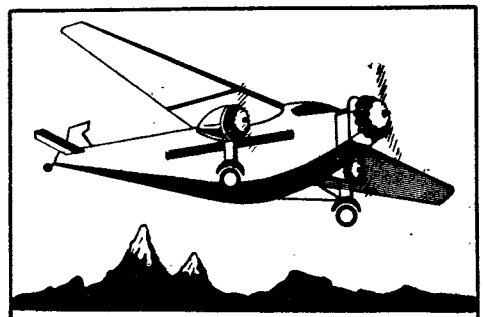

طائرة ذات ثلاثة محركات ـ عام ١٩٢٥

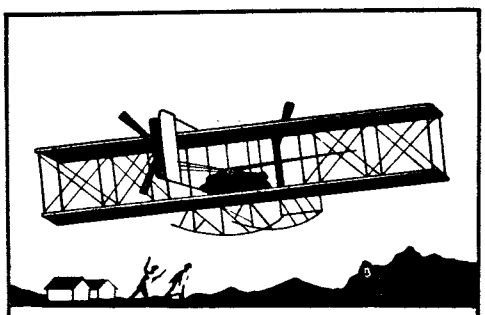

طائرة الأخوين « رايت » ـ عام ١٩٠٣

تطور وسائل النقل

من الطائرات الأولى الى الطائرات ذات المحركات

فالنفاثات الجبارة ، تطور النقل الجوي بخطىً عظيمة

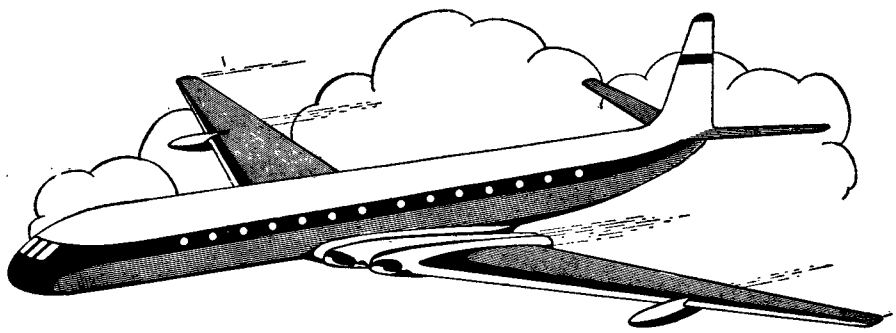

طائرة نفاثة حديثة لنقل الركاب

صناعة النفط تساير التقدم

شركة نفط الكويت المحدودة